مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

ASJP Algerian Scientific Journal Platform

المجلد:07 العدد 01 جانفي (2023) ص 577- 586

شعرية الضرورات الشعرية

Poetic Poetic Necessities

عابد أحمد.*
جامعة ابن خلدون/ تيارت،
alakheahmed.do@gmail.com

أ.د سبع بلمرسلي
جامعة ابن خلدون/ تيارت،
belmorsli.sebaa@univ-tiaret.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2021/10/30

تاريخ القبول:
2022/10/29

الكلمات المفتاحية:
✓ الشعر.
✓ الضرورات الشعرية.
✓ لغة الشعر.

الملخص:

يتميز الشعر عن غيره من الأجناس الأدبية، بلغته الوجدانية القائمة على احترام المشاعر الأحاسيس، والعرف العروضي الخليل الذي من خلاله تنسج أبياته وقصائده، دون مراعاة للغة الوضعية التي لها قواعدها وتلتف حولها الجماعة اللغوية، متملص من هذا بواسطة موضوع الضرورات الشعرية الذي لاقى موجة عارم من الآراء العديدة والمختلف لدى النحاة واللغويين، رغم مكانة وفضل ومنزلة الشعر على العلوم الأخرى في البيئة العربية، وخاصة النحو والبلاغة إذ كان الشعر فيهما يمثل الشاهد لقواعدهما وعلومهما، ومن أبرز المسائل التي شوهد فيها هذا ؛ التقديم والتأخير، الذكر والحذف، الإبدال وغيرها، لذلك كانت الضرورات الشعرية ميدانا منفردا في الدراسة ضمن معالم اللغة الشعرية.

Article info

Received 30/10/2022
Accepted 29/10/2022

Keywords:
✓ *poetry.*
✓ *poetic imperatives.*
✓ *language of poetry:*

Abstract :

Poetry is distinguished from other literary genres, by its emotional language based on respect for feelings and feelings, and the sympathetic custom through which its verses and poems are woven, without taking into account the positive language that has its rules and the linguistic community wraps around it, evading this by the topic of poetic necessities, which met a great wave of The many and different opinions of grammarians and linguists, despite the position, merit and status of poetry over other sciences in the Arab environment, especially grammar and rhetoric, as poetry in them represented the witness to their rules and sciences, and one of the most prominent issues in which this was seen; Presentation and delay, dhikr and omission, substitution and others.

* المؤلف المرسل

Therefore, poetic necessities were a single field of study within the parameters of poetic language.

. مقدمة:

تعتبر الذائقة العربية الشعر من أفضل الأجناس على خلاف غيره من الأجناس، لبلوغه بعدا فلسفيا يميزه وينفرد به دون غيره، بشت أبعاده المختلفة والمتنوعة وخاصة منها اللغوية والشكلية، ومنه نطرح التساؤلات الآتية : هل الشعر جنس أدبي أو ضرب من الشحر ؟ فيما يتمثل العبد الفلسفي للشعر ؟ وما جوهر لغته ؟

يحمل هذا الطرح في هذه الوريقات مقصدا قائم على السعي إلى تحري مواطن الشعرية المكملة للجنس الأدبي، وخاصة مسألة الضرورات الشعرية التي تعتبر من أهم المسائل التي عرفتها الذائقة العربية.

والمنهج المعتمد في هذا الطرح المنهج الوصفي التحليلي باعتباره أداة مناسبة في هذه الدراسة، لكون الوصف قائم في تتبع النقلات والاقتباسات، والتحليل ناتج عن ذواتنا لهذه الاقتباسات بغية تغذية معطيات هذا الطرح.

1 _ ماهية الشعر:

الشعر يمثل نقطة التقاطع بين اللغة وأسلوبه ؛ واللغة بمثابة الوسيلة للشاعر والأسلوب بمثابة البصمة له، والشاعر وهو المنتج للشعر وقد عرف هذا النظم عدت تعاريف، وأما من حيث الجانب المعجمي فعرفه ابن منظور بقوله : " الشعر منظوم القول، غلب عليه لشرفه بالوزن والقافية." (ابن منظور، صفحة 2273) وزاد على ذلك بأنه : " القريض المحدود بعلامات لا يجاوزها والجمع أشعار وقائله شاعر..." (المرجع نفسه، صفحة 2274)كما قد عبر عليه الجاحظ في كتاب البيان والتبين حيث قال : " ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به، ويفضلون إصابة المقادير، ويذمون الخروج من التعديل ..." (الجاحظ، 1998م، صفحة 227)وهذه التعاريف قد تناولت الجانب الشكلي للشعر، وأشهرها تعريف قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر وذلك تحت قوله : " إنه قول موزون مقفى يدل على معنى فقولنا (قول) دال على أصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس لشعر، وقولنا (موزون) يفصله مما ليس بموزون، ... وقولنا (مقفى) فصل بين ما له من الكلام الموزون قواف وبين ما لا قوافي له ولا مقاطع، وقولنا (يدل على معنى) يفصل ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة " (قدامة بن جعفر، صفحة 64) وهذا التعريف كان ملما لمفهوم الشعر حيث مس الجانب الشكل، من حيث هو موزون ومقفى وله مقاطع، ومن حيث المضمون فهو يحمل دلالة وهذا ما ميز الشعر عن غيره من الأجناس الأخرى. كما أن قدمة بن جعفر قد أقر أن للشعر حدود يقف عندها مثلها في قوله : " حد الشعر على ما قدمنا القول فيه أربعة، وهي : اللفظ، المعنى، الوزن، التقفية ... " (المرجع نفسه، صفحة 69) وهذه حدود الشعر لأن اللفظ بناء الشعر ومظهره، والمعنى دليل الفكر والخيال والتصوير، والوزن قالبه وشكله، والتقفية نغمته وإيقاعه النفسي، والمعنى يربطهم جميعا فهو الأصل في كل عمل أدبي، كما يقال : " اللفظ جسم وروحه المعنى " (العشماوي، 2009م، صفحة 228). وأما من حيث الموضوع والمضامين فقد عبر عنه ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد حاملا بذلك أصالة الشعر العربي آنذاك بقوله : " الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها، والمقيد لأيامها، والشاهد على حكامها، حتى لقد بلغ من كلف العرب به، وتفضيلها له. ... " (بن عبد ربه ، 1983م، صفحة 118)وعلى ضوء هذا التعريف فقد كان الشعر هو السجل التاريخي للعرب ومازال إلى يومنا هذا حاملا أخبارنا وحلا لمشكلاتنا وهو العمل الذي عرفه العرب قديما وحديثا بشكله إلا أن مضامينه اختلفت باختلاف العصور والأزمنة.

2 _ مكانة الشعر من النثر:

وأما منزلة الشعر من النثر فهي قديمة قدم وجوده، فإن كان الأول في الموجود النثر فالشعر من رحمه، فوجود النثر أولا كان بوجود الكلام عند الإنسان، وأما علاقة الشعر بالنثر فهما شريكان في المعنى وتبني المواضيع، ويذهب أبو حيان التوحيدي إلى التقريب بينهما من ناحية الإيقاع، في كون " أحسن الكلام ما قامت صورته بين نظم كأنه نثر، ونثر كأنه نظم. " (أبو حيان التوحيدي ، صفحة 166)وبهذا يكون كل واحد منهما مادة للآخر في تقويم عباراته، وتحسين تأليفه، فعمود الشعر الوزن والقافية، والترسل للنثر، وهذه الرؤية القديمة لجنسي الشعر والنثر، مبنية على أساس البعد الشكلي، دون البعد الجوهري الفاصل بينهما دون ريب، فتعلم العروض لكتاب الشعر دون معرفة جوهره، تجعل منه شعرا للتكلف، وتعلم الترسل للجود في النثر دون استيعاب جوهره تجعله لغوا وتخريفا، فجوهر الشعر لغته المعبرة عن العواطف والوجدان، وجوهر النثر اللغة الناقلة للحقائق والمعارف، ذلك أن " غاية النثر نقل أفكار المتكلم والكاتب، فعباراته يجب أن تشف في يسر عن القصد، والجمل فيه تقريرية، وعلامات على معانيها، والوسائل تنتهي بانتهاء الغاية منها، وموضوعه حدث من الأحداث، أو مسألة من المسائل المبنية أولا على الأفكار. أما الشعر فإنه يعتمد على شعور الشاعر بنفسه، وبما حوله شعرا يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيا عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور، ... " (هلال، 1973م، صفحة 377) وبهذا يتضح أن الشعر يخضع لحكم سلطان العاطفة كيف ما كان، ولو على حساب القواعد الوضعية في مختلف المستويات.

3 _ الضرورات الشعرية مدعاة الاختلاف :

اتضح مما سبق أن لغة الشعر جوهرها العواطف والوجدان، وهذا على حساب القواعد والمعارف الوضعية، المقيدة للحركة الشعرية، التي تعرف بالحدود التقعيدية، وقد أدرك الدارسون هذه المسألة منذ القدم، وعبر عليها بمصطلح الضرورات الشعرية، وبعبارة أوضح أنه يجوز للشاعر ما لا يجوز للكاتب، وبها يمتاز جنس الشعر بحرية مطلقة بخلاف الأجناس الأخرى، إذ " ان كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنثور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنثور. " (ابن الأثير ، 1962م، صفحة 239)وهذا نتيجة ارتباط لغة الشعر بالوجدان والعواطف التي لا تتقبل المنطق والتواضع القاعد.

الحديث في هذا الباب واسع وجليل وعتيق عتق الحديث عن الشعراء المتولدين، وسؤال ابن جني لأبي علي عن موضوع الضرورات هل تجوز للشعراء المتولدين ؟ فقال " كما جاز أن نقيس منثورنا على منثورهم، فكذلك يجوز لنا أن نقيس شعرنا على شعرهم فما أجازته الضرورة لهم أجازته لنا، وما حضرتهم عليهم حضرته علينا. " (ابن جني، صفحة 323)فهذه المسألة لم تكن مستحدثة، فهي أصل متأصل في الشعر العربي، وقد يتبادر السؤال إلى أذهاننا لماذا العرب لم تهتم بفكرة الضرورات كاهتمام النحاة الذين قدم من بعدهم ؟ ، والوقوف على جوابه بديهي فالفرد العربي قبل اتساع الفتحات الإسلامية، واختلاطهم بالعجم، كان ينطق فيعرب، ويتكلم فينحو، لسلامة فطرته وسليقته التي كانت وليدة البيئة العربية، على رغم اختلاف مشاربها اللغوية، لتعدد اللهجات والألسن، وهذا لم كان الحال ضمن حيز الفطرة العربية السليمة، وبارتباطها بكلام الله، وتوسع رقعة الفتحات والمزج الذي مس الجنس العربي، استدعى المقام حضور الجانب التقعيد إلى النحو العربي، بغية الحفاض وإبعاد القرآن الكريم عن التحريف والخطأ اللغوي، فكان من المبادرين الأوائل الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-، وعلى رأسهم علي -رضي الله عنه- ثم توالت الجهود من بعدهم، فكان الشعر موضوعا يستحق العناية هو الآخر، ومن بين المسائل التي لقيت اهتماما كبيرا لدى النحاة والنقاد العرب مسألة الضرورات الشعرية، منزلة الشعر لدى الذائقة العربية، ومن المواقف التي ترسم هذه المكانة موقف الفرزدق مع عبد الله بن أبي إسحاق حين قال :

على عمائمنا يلقى وأرحلنا *** على زواحف تزجي مخُّها ريرِ

قال ابن أبي إسحاق : " أسأت، إنما هي ريرُ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع " فيروى أنه بلغ الفرزدق اعتراض عبد الله بن أبي إسحاق عليه، قال : " أما وجد هذا المنتفخ الخصيين لبيتي مخرجا في العربية، أما وإني لو أشاء لقلت : على زواحف نزجيها محاسير، ولكنني لا أقوله " (البغدادي، 1299هـ، صفحة 116)فالشاعر في هذا المقام يعتز بحريته الشعرية والتي تمكنه من خلالها وضع بصمته الشخصية، المعروف بها، دون غيره من الناس، فالمتعارف عليه أنه يجوز للشعر ما لا يجوز للناثر، وهذه تمثل البطاقة الذهبية لدى الشاعر أمام ما يعرف بالمنطق اللغوي.

وبعد الذي قيل يستدع الموضوع الذي بين أيدين، الوقوف على مصطلح الضرورات الشعرية، وارتباط كلمة الضرورات بجنس الشعر دون الأجناس الأخرى يعطيه الأفضلية عليها، ولهذا قيل الشعر ديوان العرب، ومن هذه المفردة يتضح ؛ أن هنالك بعض المواقف التي تضطر الشاعر إلى خرق العرف النحوي وتجاوزه، بغية الحفاظ على الوزن واحترامه، و" اعلم أنه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام من صرف ما لا ينصرف، ... وحذف ما لا يحذف ... " (سيبويه، صفحة 8) وهذا اضطرارا لا اختيارا، وقد ذهب إلى هذا العديد من النحاة وعلى رأسهم إمام النحويين سيبويه، والذي يرى أن الضرورات الشعرية تكون فما استنه العرب، ولا تكون في غير ذلك، حتى ولو كان في الشعر، فهو يمثل مخالفة القياس والخروج عن المألوف من الكلام اعربي، " فخروج الشاعر في شعره عما هو مألوف في الكلام يشبه ما يقع في الكلام نفسه من الخروج على القاعدة والقياس، وحينئذ يقع الفرق بين الشعر والكلام على ما يختص به الشعر من ذلك، فالفرق بينهما ليس في طبيعة الظاهرة نفسها، فكلاهما خرج عن القياس. وإنما الفرق بينهما أن الشعر وقع فيه من ذلكما لم تثبت الروية وقوعه في الكلام، وهذا هو محل الضرورة، ... " (محمد، 1983م، صفحة 15) الشعرية التي لم تخرج عن سنن العرب في كلامهم، فالكلام المنثور لم تثبت فيه سنن العرب الضرورات، ولو ثبتت فيه لأثبتها النحاة والنقاد في النثر، وثبوتها في الشعر لا يفتح باب الفوضة في خرق علم النحو في حضرة الوزن، وإنما تمثلت الضرورة الشعرية في إعطاء كل ذي حق حقه في الموضع الذي سمحت له السنن الوضعية في الكلام العربي، وإلا فخلاف ذلك مردود على صاحبه سواء كان متكلما، أو شاعرا.

إن اللجوء إلى نظام غير مألوف في الشعر، واللجوء للإيجاز، مسار يتبناه الشاعر في نسج وسبك قصائده الشعرية، وفق قيود الوزن والقافية، وتحليل للموضوع، وتجاوز للواقع، كله عوامل تدعو إلى خرق المتواضع عليه، والمعهود في الكلام المنثور، والنزوح إلى الحرية المطلقة في الخرق، فغاية الشاعر العاطفة والأحاسيس، لا النحو والعلوم اللغوية، وقد ذهب إلى هذا العديد من النحويين واللغويين، وعلى رأسهم أبو الفتح عثمان المعروف بابن جني، وفي هذا يقول : " أن العرب قد تلزم الضرورة في الشعر في حال السعة ؛ وأنسا بها اعتيادا لها، ... " (ابن جني، 1956م، الصفحات 303-304)بخلاف ما هو عليه المتكلم في حال الكلام الآخر، بل إن ؛ فكرة الضرورات الشعرية " لم يعد يسمى كله كذلك في نظر البعض الآخر. أنما أصبح مما تختص به لغة الشعر دون غيرها ؛ لأن الضرورات في حقيقتها ارتكاب مالا ممدوحة عن ارتكابه. وقد تبين أن الشاعر يتصرف في اللغة ويتجاوز حدود قواعدها المنطقية الموضوعة التي يجب أن تطبق في النثر مع علمه بهذا التجاوز وقدرته على تفاديه. فهو يتصرف ويتجاوز رغبا مختارا، ومستأنسا " (المصدر نفسه، صفحة 302)وبهذا تجاوز الشاعر مسألة الضرورات، لتصبح ظاهرة الخرق اللغوي في حيز الشعر طبيعة لغته التي يتباين بها عن غيره من الأجناس الأخرى، وقد يقول السائل أن هذا مدعاة للفوضى ؟ فالجواب بسيط ببساطة سؤاله، فالشاعر مقيد بالوزن والقافية، ولهذا يلجأ إلى الإيجاز، ويقول السائل أن الشاعر الحر قد تجاوز مسألة الوزن والقافية ؟ فالجواب أن الشاعر سجين عواطفه وأحاسيسه ؛ وبهذا صارت قضية مخالفة القياس اللغوي الذي يقوم عليه النثر، قياس لغوي للشعر تبنا على إثره القصائد الشعرية، " لأن الشاعر هو سيد الموقف ومرجع اللغة الأساسي والرسين، لا يلتزم التزاما فرضيا وقطعيا بلغة النحويين، التي تخضع لسلطان المنطق والعقل، وإنما يقضي بما تملي عليه عاطفته ويفصح به شعوره وتقره سليقته ويعترف به وجدانه، ولو عارض ذلك لفسدت

سليقته، وخرج عن عفويته وانتفت شعريته، لأن طبعه وإحساسه وسليقته الصافية، هي القاعدة الأولى التي ينطلق منها، وهي الموجه والحكم والقياس الذي يستند إليه. " (معتوق، 2006م، الصفحات 53-54)دون الحاجة إلى العرف اللغوي بشتى مستوياته ومعارفه.

وبعد الذي قيل يتضح إن مصطلح الضرورات الشعرية الذي يتبناه النحويون، اعتراف للغة الشعر على أنه لا يمكن ارضاخها وإخضاعها للقياس ؛ لكون قياسها الوحيد هو العاطفة والوجدان، بعيدا عن المنطق والعقل، ومن هذا " فاللغة تدين للشعراء أكثر مما تدين لطائفة أخرى من الناس، فالشعراء يعطون لنا أسليب جديدة في التفكير والإحساس، ومن ثم يدأبون في تكون شعب عظيم، فالمتغيرات التي تحدثها القلائل من المؤلفين الكبار هي قنوات جديدة في الإحساس، وأحداث جسيمة في حياة العقل. " (ناصف، 1970م، صفحة 148)باعتبار لغة الأدب دائما تتخذ منحا آخر بعيدا عن لغة القياس، وخاصة لغة الشعر الخارقة لكل الأعراف، وعلى مختلف البيئة، فالحديث لا يقتصر على الشعر العربي ؛ بل يتجاوزه إلى باقي الأمم الأخرى.

فكون لغة الشعر عرفت الاستعمال غير المألوف، هذا لا يعني أنها خروج عن ما يعرف بدورة التواصل، باعتبارها لغة فريدة عن الكلام العام والخاص ؛ لا يخرج عن حيز اللغة التي غايتها الأولى التواصل، والتعبير عن الغرض داخل المجموعة اللغوية، فالشاعر لا ينظم شعرا لنفسه، فإنما ينظمه لقرائه ومتتبعيه، كما إن الشاعر ابن بيئته لا يمكنه التملص من ذلك، وبما أن للشعر لغة فهي قابلة للعرض والنقاش، ضمن الدرس البلاغي، وخاصة البلاغة العربية التي اعتنت بالشعر عناية خاصة لكونه سيد الأجناس الأدبية لدى الذائقة العربية قديما وحديثا، ومن المواطن التي تميزت بها لغة الشعر عن غيرها من لغات الأجناس الأدبية، وكانت ضمن موضوع الضرورات الشعرية، مواطن التقديم والتأخير، الذكر والحذف، البدل، وتغيير الإعراب عن وجهه ... وغيرها من المسائل التي اعتبرها النحاة من الضرورات، وسرعان ما تنازلوا عن ذلك مع مرور الوقت، لتصبح بذلك ميزة لغة الشعر الذي يتميز به قالبه اللغوي، دون القوالب الأدبية الأخرى، والطاهر عن المسائل التي طرقتها قضية الضرورات الاهتمام بالظاهر اللفظي، دون العناية بالمعنى والنظم، ومن هنا يظهر دور البلاغة العربية باعتنائها بالمعنى العميق ضمن النظم، دون النظر للمعني المعجمي الذي يحمله الظاهر اللفظي، وبهذا اعتنت البلاغة العربية بحلقة التواصل التي تربط المبدع بالمتلقي.

بالوقوف على بعض المسائل التي عرضت ضمن قضية الضرورات الشعرية، كمسألة التقديم والتأخير، الذكر والحذف، وغيرها من المسائل التي ترجمتها كتاب النحاة، اثرى تعرضهم للموضوع الضرورات الشعرية، والوقف على عتبة باب هذه المسائل في حيز الدرس البلاغي، فصد رسم الحدود الرابطة والفاصل بين لغة الشعر- الضرورات الشعرية – وعوالم الدرس البلاغي الذي أنتجته البيئة العربية.

أ _ التقديم والتأخير ضرورة أم بلاغة :

موضوع التقديم والتأخير من أجل المواضيع التي اعتنت به الدراسات النحوية والبلاغية داخل حيز الدراسات العربية قديما وحديثا، أما عرض هذا الموضع في دائرة لغة الشعر تحت مظلة الضرورة الشعرية فلا تكاد تخلو كتب النحو القديمة من الولوج لدراستها، وقد قيل أنفا أن مسألة الضرورة قد اهتمت بالظاهرة اللفظية بعيدا عن المعنى والنظم، وقد بات ذلك مشهورا في الساحة النقدية القديمة، لدرج أن صار بعض النقاد يعرضون عنها، لكثرة الحديث فيها، في هذا يقول الآمدي : " وأما ما بوبه النحويون من عيوب الشعر في الإقواء والإكفاء والسناد، وغير ذلك مما هي عيوب في اللفظ دون المعنى، فليس بنا حاجة إلى ذكره، لكثرته وشهرته. " (الآمدي، 1961م، صفحة 49)لطبيعة موضوع الضرورة الذي يهتم باللفظ بشتى أبعاده

الصرفية والنحوية، بخلاف علوم البلاغة التي تهتم بالمعاني العميقة بتتبعها ضمن النظم الذي نظمت فيه، فلا يعني أن البلاغة ولغة الشعر لا يمكن الجمع بينهما، فالشعر المادة الأولى للبلاغة في التقعيد، وعلوم البلاغة آلات التحليل والفهم للشعر، ومن الأمثلة التي جاءت في مسألة التقديم والتأخير، تقديم المعطوف على المعطوف عليه، مثله قول الأخوص :

ألا يا نخلة من ذات عرق *** عليك ورحمة الله السلام (البغدادي، 1299هـ، صفحة 192)

رغم غرابة الاستعمال في ترتيب الكلام، إلا أن هذه الغرابة في لغة الشعر قد ألبست البيت لباس البلاغة في التعبير، خلاف الرد المألوف الذي تعودت الأذن على سماعه - وعليك السلام ورحمة الله – رغم بساطة العبارة، والغاية من هذا الحفاظ على وحدة القافية والروي التي بنيت عليها القصيدة، فهي من قبيل الشعر العمودي الذي يعتمد على نظام الشطرين. وهذا التقديم غير جائز لدى " النحاة البصريين، وجائز لدى النحاة الكوفيين في حالة الرفع للشعر دون غيره، وعلتهم في هذا أن هذه الأسماء ترفع بالابتداء." (عبد الهادي، صفحة 329)

ومما جاء في هذا الصدد تأخير المضاف عن المضاف إليه، ومنه ما قاله الفرزدق :

هيهات قد سفهت أمية رأيها *** فاستجهلت حلماؤها سفهاؤها

وتقديره : قد سفهت أمية حلماؤها رأيها فاستجهلت سفهاؤها " (السيرفي، 1985م، الصفحات 187-188)وهذا ما ذهب إليه السيرفي والعديد من النحاة، وظاهر الترتيب الذي جاء به الفرزدق أن رأي أمية بذاته سفاهة، فكان أضعف الإيمان أن تقابل رأي الأخريين من حلمائهم وسفهائهم بالجهل، وهذا ظاهر الحديث الذي حمله هذا البيت، وأما أن تجعل رأي الحليم سفاهة، ورأي السفيه جهلا، فهذا لا يوزن في ميزان الترتيب الذي جاء به الشاعر، وبهذا حمل السيرفي البيت على التقدير القريب إلى المنطق اللغوي، دون السعي للوصول إلى المنطق الشعري والذي يعتمد على العاطفة وأحاسيس الوجدان.

وأما باب التقديم والتأخير ضمن الدرس البلاغي، فقد تجاوز فكرة عدم احترام الترتيب الممنطق، ويسعى في البحث عن طبيعة الترتيب المحدث في لغة الشعر، وكشف أسراره بغية الوصول لمقصد الشاعر وإزالة الشبهات عن المعنى المخبئ وراء التركيب الذي ألبسته غرابة تركيبه لباس الغربة عن لغة الاستعمال، " هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، ما يزال يفتر لك عن بديعه، يضف بك إلى لطفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان. " (عبد القاهر، 2000م، صفحة 106)، بحضوره يستلطف الكلام فيطيب لنفس تلقيه، ويروقك سماعه لما أحدث في الكلام من مخالفة المعهود، فتطرب له النفس، وتفتح قناة الوجدان بين المبدع ومتلقيه، وتفوح رائحة العواطف والأحاسيس التي تنسج من خلالها لغة الشعر، دون اعتراف بقواعد لغة التواضع، فمنطق لغة الشعر والشاعر هي العاطفة والوجدان بعيدا عن العرف والمنطق اللغوي.

والتقديم في الدرس البلاغي يكون على وجهان ؛ إما أن يكون على نية التأخير، أو يكون تأخير الشيء على تغير في أصله فتنقله من حكم لحكم آخر، كأن تقدم الخبر على مبتدئه، كون الأول خبر وثاني مبتدأ فهذا الوجه من التقديم يؤخذ على حكم نية التأخير، وأما أن تقدم الخبر الذي يكون اسما على أنه مبتدأ، وتأخر المبتدأ على أنه خبر فهذا الوجه من التأخير يؤخذ حكم نقل الشيء عن أصل إلى أصل، و" التقديم يقال أنه على نية التأخير، وذلك في كل شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدأ إذا قدمته على المبتدأ، والمفعول إذا قدمته على الفاعل، ...

لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، ... " (المصدر نفسه، صفحة 106) فتأخير عن المرتبة التي كان فيها أو تقديمه عنها، لا ينحيه عن المكانة الأصلية نتيجة للتقديم أو التأخير، كقول : مسرعٌ خالدٌ، وعاتب خالداً عمرٌ ؛ فتقديم كلا من خالداً ومسرعٌ لا يخرج الأول عن كونه مفعولا به، ولا يخرج الثاني عن كونه خبراً، فهذا راجع لما أقره الكاتب في الترتيب الذي نسج على إثره بيت قصيدته، وغايته في ذلك إظهار الأولوية في العناية والاهتمام، باعتبار المتأخر معلوم لدى طرف التواصل وبه وجب التركيز على المتقدم في الترتيب، لأنه مجهول لدى المتلقي ومعلوم لدى المنشئ، فالغاية من اللغة التواصل واصال المعلومة والقصد من إنشائها وهذا في الاستعمال اليومي، أما كون اللغة موظفة في العمل الأدبي فالعرف الفني يستوجب لباس البلاغة فيه وخاصة الشعر منه، ويكون التقديم " لا على نية التأخير، ولكن على أن تنقل الشيء عن حكم إلى حكم آخر، وتجعل له باب غير بابه، وإعرابا غير إعرابه، وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبراً له، فتقدم تارة هذا على ذاك، واخرى ذاك على هذا، ... فأنت في هذا لم تقدم على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير، فيكون كما كان ؛ بل على أن تنقله عن كونه خبرا إلى كونه مبتدأ، ... " (المصدر نفسه، صفحة 106)والعكس صحيح، بأن تنقل المبتدأ من كونه خبراً إلى كونه مبتدأ في طبيعة الترتيب، وهذا كله خاضع لمبدأ المقصد، فكونك تقول المسرعُ خالدٌ أو تقول خالدٌ المسرعُ، قصداً من ذلك جعل كلا من المسرعُ وخالدٌ مبتدأ في كونهما ابتدأت بهما الجملة، وجاعلا خالدٌ والمسرعُ خبراً لمبتدئهما، هذا لا يعني أنك قدم المسرعُ وخالدٌ الأولين على أنهما خبرين ؛ بل تقدما على أنهما مبتدئين وتأخر كلا من خالدٌ والمسرعُ على أنهما خبر، وهذا الوجه لا يؤخذ على وجه نية التأخير ؛ بل يؤخذ على وجه نقل الشيء عن أصل إلى أصل، وقد شهد الشعر العربي العديد من هذه الأوجه منذ القدم رغم تنوع الظروف والأحداث.

ب _ الحذف موضوع الضرورة والبلاغة :

يزن موضوع الحذف وزن التقديم وتأخير عن ؛ كونهما عامليين أساسيين في تميز لغة الشعر عن غيرها من لغات الأجناس الأدبية الأخرى، وعامل الحذف بين المتضامنين في ميدان الضرورة الشعرية، أنواعه كثيرة ذكر منها ابن جني أنواعا كثيرة، وابن هشام في المغني ستة وأربعين نوعا، وهو كثير الوقوع في الشعر " لأنه به أشبه وله أسوغ، وبعض هذه الحذف لم يقل النحاة عنها أنها ضرورة، وبعضها اختلف في جوازها أو عدمها، وأخضعوا كل لون منها للتقدير القائم على فهم المعنى، ومنه تدرك ان القول بالضرورة خاضع لتقدير النحاة " (عبد اللطيف، 1996م، صفحة 252) الذين يعتمدون على المنطق اللغوي لدى الجماعة، وإخضاعها بتقديرهم لمزان العقل، دون احترام العرف الشعري الناقل لهذه الظواهر اللغوية، وبصيغة غير معلومة لدى حكم النحاة، فتحظا هذه بالقبول وأخرى بالرفض، وميزان هذه التقارير هو التقدير القائم على تتبع المعنى وفق التقعيد النحوي، دون أخذ اي اعتبار للغة الشعر التي كانت منبت هذه القضايا.

للزيادة والتوضيح نعرج على بعض مواطن الحذف التي أدرجت في فهرس الضرورات الشعرية، والتي تجاوزت هذه العناوين الاثنان وأربعين مسألة، كحذف واو العطف وقد " أجاز بعض النحاة حذف واو العطف، فأجازوا أن يقول الشاعر إذا اضطر رأيت زيدا عمرا، على غير البدل، ولكن على معنى رأيت زيدا وعمرا، ثم يحذف الواو. مما مثلوا في ذلك :

كيف أصبحت، كيف أمست مما *** يثبت الود في فؤاد الكريم " (القيرواني، صفحة 264)

يرد الشاعر من كلامه كيف أصبحت وكيف أمست، وعزاله حرف العطف على حسب المثال المعطى كان غرضه استقامة الوزن في البحر الخفيف الذي بني عليه نسيج هذا البيت، فالشاعر خاضع لعامل الوزن أكثر من خضوعه للقاعدة النحوية، فزيادة حرف العطف يكسر المعهود في الشعر، وإن كان ضروريا في اللغة المستعملة.

وهناك من النحاة من يرى أن هذا ليس من الضرورة في الشعر، لجواز حذف حرف العطف في الأصح -الحديث والنثر- فهو أجوز في الشعر ؛ لكون لغته خاضعة لقياس العواطف والمشاعر، فحرف العطف وغيره إن كان يعرض الوزن للخلل فحذف ليس من الضروريات بل هو واجب، وهذا ما ذهب إليه ابن مالك والسيوطي خلافا لابن جني والسهيل، وابن الضائع. (عبد اللطيف، صفحة 250)

واعتبر النحاة حذف مجزوم لم غير جائز في النثر وهو من الضرورة في الشعر، فحذف الفعل المضارع المجزوم بعد لم يجعل منها أداة غير عاملة، وبهذا تكون زائدة عن الجملة ولا فائدة ترجا منها، فلا يجوز حذف الفعل المضارع في قول : وصلت إلى تيارت ولم ...، وقد تريد من هذا التركيب ولم أدخلها، ولم أعرفها، ولم أتجول فيها، وغيرها من الاحتمالات التي يمكن للقارئ أن يتصورها، وهذا ضمن السياق النصي الذي تتوفر فيه بقع الإبهام أو فراغات الغموض، على حسب ما ذهب إليه رومان أنجاردين وهذه الاحتمالات في القراءة لا يعني بها " أهدافا اجتماعية، مذهبية أو غيرها مما قد تفرضه واقعية النص، بل يعني أن النتاج الأدبي ينطوي بالضرورة على ما يسميه (فرغات) وهذه الفرغات تمثل في جوهر النص بقع الإبهام أو أماكن الغموض، وتلك يستشعرها القارئ في تعامله مع النص، فتصبح بالنسبة له أهدافا يجب استكمالها لملء فرغات الغموض، وهذا المسلك يعد أهم عمل يمكن أن يقوم به القارئ في علاقته بالنص. " (عبد الوحيد، 1996م، صفحة 38) الذي يحتوي على أماكن الإبهام، التي تسمح للقارئ استعمال التأويل واستكمال المعاني والمضامين ؛ وذلك بعد استحضار الاحتمالات القرائية المتنوعة، فبتنوعها تتعدد القراءات وتختلف الرؤى حتى وإن كان المقروء واحدا، فقول الشاعر:

احفظ وديعتك التي استودعتها *** يوم الأعازب إن وصلت وإن لم

ومما جاء في هذا السياق قول ابن هرمة :

وعليك عهد الله إن ببابه *** أهل السيالة إن فعلت وإن لم

وابن هشام والعديد من النحاة لا يجيزون ذلك إلا في الشعر بحجة الضرورة، وهم يجيزون حذف مجزوم لما، ويستدلون على حذف مجزومها بأبيات من الشعر، (عبد اللطيف، ينظر: لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية ، صفحة 246) ورغم هذا وغيره من المواطن التي اختلف فيها النحاة، تبقى قواعد النحاة بالنسبة للغة الشعر نسبية وقابلة للتفاوض، فترك المألوف طبيعة الشعر وفيها تتوفر فراغات الغموض التي تسمح للقارئ تغذية النصوص الشعرية وتكملة الأعمال الإبداعية والمساهمة في نضوجها، فالنص الأدبي ساحة للإبداع والقراءة وفيها تظهر علاقة التأثير والتأثر، ومن خلالها يتضح محورا التواصل في كون الأول مبدعا والثاني متلقي.

وأما باب الحذف في الدرس البلاغي فقد تجاوز فكرة قبول موطن دون موطن، ودعا إلى البحث عن أسرار هذا الحذف ومعرفة أوجهه البلاغية، بغية أثراء العرف الأدبي القائم بين المبدع والمتلقي، ونظرة البلاغة للحذف على أنه " باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى بها ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إدا لم تبن. " (عبد القاهر الجرجاني، 2000م، صفحة 146)، ونظرة الدرس البلاغي لمسائل الحذف بعمومها لتلمس موضوعا وتترك آخر، وإنما تشمل كبيرها وصغيرها فذكر كلمة باب نكرة دون تعريف يفيد العموم، وعبد القاهر الجرجاني يرى أن باب الحذف من أجل الأبواب وأحسنها وأروعها بيانا، وأزيدها للفائدة، وأفصحه للمعلوم، فالحذف امتحان لحضور المتلقي اثرى تلقيه النص الشعري، فمثلا حذف فعل الشرط والجواب بعد إن يعد من الضرورة لدى بعض النحاة، كابن مالك وابن عصفور، ومن الأبيات الحاملة لهذه الظاهرة، قول امرأة من العرب وهي تشتكي العنوسة :

قالت سليمى ليت لي بعلن بمن *** يعسل رأسي وينسي الحزن

وحاجة ما إن لها عندي ثمن *** مستورة قضاؤها منه ومن

قالت بنات العم يا سلمى وإن *** كان فقيرا معدما قالت وإن (ابن عبد ربه، 1994م،، صفحة 496)

فأصل الكلام من قول المرأة -وإن- واضح بيّن فهي تقصد وإن كان فيقيرا معدما فزوجنيه، فهذا الحذف يحمل الكثير من الدلالات والبيان، رغم كسر للمعهود ومخالفة المألوف، فهو يدل على لهفة المرأة الأعرابية للزواج ببعل يصونها ويحفظ سرها، ويكون سترا لها، حتى وإن كان فقيرا معدما، فهي ترى أن الفقر أهون من العنوسة عندها، وبهذا الحذف عبرت المرأة عن أوجاعها ومشاعرها اتجاه ما تعانيه جراء العنوسة.

خاتمة :

مجمل القول حول هذه الكلمات، التي اعتنت بشعرية الضرورة، ومدى تجسيدها لمواطن الكمال في الشعر، بتأليفه غير المألوف المخالف للوضع النحوي والتقعيد اللغوي، لمدارات الجانب العروضي المتمثل في الوزن والقافية والروي، وجوهر لغته المعتنية بالمشاعر والوجدان وفق متطلبات واقعية، ومن نتائج هذه الكلمات المطروحة في هذه الوريقات :

_ يبقى الشعر من أفضل الأجناس الأدبية لدى الذائقة العربية، رغم غرابة تأليفه ومخالفته للتواضع اللغوي لدى الجماعة اللغوية، نتيجة انصياعه لرئاسة الوجدان ووزارة الوزن وعلم العروض، وهذه المعالم تمثل الجانب الجمالي للغته الشعرية.

_ جوهر لغة الشعر الوجدان، وشعرية الضرورة الشعرية أصل فيه، منطقه الشكلي موسيقى الخليل، والجوهر الوجدان والمشاعر التي تتخلل نفسية الشاعر، وخلالها تتجلى ملامح الشعرية.

_ الضرورة الشعرية عند النحاة بين الرفض والقبول، وعند أمراء الشعر لغته وطابعه المتطبع فيه دون غيره من الأجناس/، وهي تمثل بعد الشعرية الجمالية خلاله.

_ مسائل التقديم والتأخير والحذف، في موضوع الضرورة الشعرية تعتبر باب يحتمل النقاش فيه لدى النقاد والنحاة، وهذه المسائل في دروس البلاغة من القضايا التي تفخر بها وخاصة إذا التصقت بالشعر الذي هو ديوان العرب وخاصتهم، وفيها تظهر ملامح الجمال للغة الشعرية.

وفي الختام يبقى الشعر ملاذ المشتاقين وروضة المحبين، من الأولين والأخرين، فهو رفيق البلغاء والفصحاء، وميدان العارفين من النقاد والأدباء، فمجلسه جالب لصفاء لم عرف عنه الفاء، ونهاية الكلام بالصلاة على خير الأنام، وشكر لله موفق الأفهام.

قائمة المراجع

1. أحمد بن محمد بن عبد ربه : العقد الفريد، تحقيق : عبد الحميد الرحيني، ط-1، لبنان : بيروت، دار الكتب العلمية، 1983م، الجزء 6
2. أبو حيان التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة، تحقيق : أ حمد أ مين وأحمد الزين، د ط، المكتبة العربية : بيروت، الجزء:2
3. جمال الدين أبو الفضل بن منظور : لسان العرب ، المجلد 4، الجزء 26، مادة شعر
4. عبد القادر البغدادي: خزانة الأدب، د ط، بولاق، 1299هـ، الجزء 1

5. ابن جني: الخصائص، تحقيق : محمد علي النجار، د ط، دار الكتب، 1956م، الجزء 3
6. لأبي سعيد السيرافي: ضرورة الشعر، تحقيق : رمضان عبد التواب، ط 1، دار النهضة العربية : بيروت، 1985م
7. السيد إبراهيم محمد: الضرورة الشعرية دراسة أسلوبية. ط 3، دار الأندلس : بيروت لبنان. 1983م
8. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، تحقيق : محمود محمد شاكر. د ط، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2000م
9. ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق : أحمد أمين وآخرين، ط 2، دار الكتب المصرية : القاهرة، 1994م، الجزء 3
10. عمرو بن بحر الجاحظ : البيان والتبيان، تحقيق : عبد السلام محمد هارون، ط 7، القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، 1998م، الجزء 1
11. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي، د-ط، لبنان : بيروت، دار الكتب العلمية
12. محمود عباس عبد الوحيد: قراءة النص وجمليات التلقي. ط 1، دار الفكر العربي : مدينة نصر، مصر، 1996م
13. سيبويه: الكتاب، تحقيق : عبد السلام هارون، د ط، مكتبة البولاق، الجزء1
14. محمد حماسة عبد اللطيف : لغة الشعر دراسة في الضرورة الشعرية ، ط 1، دار الشروق : بيروت، 1996م
15. أحمد محمد معتوق : اللغة العليا دراسة نقدية في لغة الشعر، ط 1، المركز الثقافي العربي : دار البيضاء المغرب، 2006م
16. القزاز القيرواني: ما يجوز للشاعر في الضرورة، تحقيق : رمضان عبد التواب وصلاح الدين الهادي، د ط، دار العروبة الكويت
17. ضياء الدين ابن الأثير : المثل السائر في كلام الكاتب والشاعر، تحقيق : أحمد الحوفي وبدوي طبانة، د ط، دار نهضة مصر : القاهرة، 1962م، الجزء1
18. محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، الكويت : مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، 2009م
19. مصطفى ناصف: مشكلة المعنى في النقد الحديث، د ط، مكتبة الشباب، القاهرة، 1970م
20. الآمدي : الموازنة ، تحقيق : السيد أحمد صقر، د ط، دار المعارف القاهرة، 1961م، الجزء 1،
21. غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، د ط، دار الثقافة : بيروت، لبنان، 1973م،